في الأدب الانجليزي

الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

مقدمة :

لا شك في أن عبقرية شكسبير ظهرت في مناحي عدة وصور مختلفة ، وليس من السهل على أي شخص مهما كانت نزعته ومهما تباينت عقليته أن ينكر أن شكسبير هو شاعر بريطانيا الأعظم وكبير من كبار الشعراء العالميين ، ولكن ويا للأسف اختلف النقاد في انكلترا وفي غيرها من بلدان العالم في تحديد الدرجة الممتازة التي وصل إليها هذا الشاعر . فاعتبره البعض أعظم شاعر بزغ نجمه على هذه البسيطة لا في عصره فحسب ، بل في العصور التي سبقته أو تلته . وأنكر البعض الآخر هذا الادعاء وتحاملوا عليه تحاملاً ظاهراً ، معتقدين أن عظمته لا تفوق

التي ألقاها في الجامعات الهندية في فلسفة الالهيات إلى اللغة الألمانية

وفي ايطاليا نشر العالم الطلياني الكبير الدكتور اسكاريا الذي زار أفغانستان والهند وقابل الدكتور اقبال مقالات عن شعر اقبال في مجلة أدبية ايطالية

وفي انجلترا ترجم الدكتور نكلسون ديوانه « أسرار الأنانية » وجزأ من ديوانه « رسالة الشرق » إلى الانجليزية ونشرهما فذاع بهما صيت الدكتور في أمريكا وبلاد أخرى أيضاً ، ونوهت أندية العلم والأدب والجرائد والمجلات العلمية والأدبية بشعره ، وكتب عن « أسرار الأنانية » المرحوم الدكتور براون المستشرق الانجليزي الشهير في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، وأيضاً نوه باقبال وشعره في تصنيفه تاريخ الأدب الفارسي في المجلد الرابع منه

وفي أمريكا صنف العالم الأمريكي الجليل ميكنزي كتاباً أسماه « يقظة الهند » فنوه فيه باقبال وشعره ونظرياته وفلسفته

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

في أية ناحية من نواحيها عظمة جوتي الألماني ودانتي الايطالي

إن من الصعب أن أبرهن في هذه العجالة على عظمة شكسبير وتبريزه على غيره من شعراء العالم ، ولم أقصد فيها إلا البحث في ناحية واحدة من مناحي تفكيره العميق وخياله البدع الذي تناول بواسطته جميع نواحي الحياة من عقائد وتقاليد فدونها في شعره ورواياته . نعم كان من الصعب عليه أن يوفق بين عقائده الشخصية وبين عقائد مجتمعه البشري ، ولكنه خرج من هذا الميدان مكللاً بأكاليل من الغار وتيجان من الظفر

لم تكن الخرافات والغيبيات (Supernaturalism) عقيدة راسخة في تفكير شاعرنا ؛ فقد كان دائم الاضطراب والشك في هذه الناحية من مناحي الغموض والخفاء المقليين . لقد حاول في رواياته أن يبتعد عن العقائد الشائعة العامة ، ولكنه لم يستطع ذلك لتخوفه من الرأي العام السائد في تلك الأيام الرهيبة

عقائده الدينية :

ولد شكسبير سنة ١٥٦٤ إبان الدور الأول من حكم الملكة اليصابات في عصر اشتد فيه النزاع الديني واختلفت فيه العقائد ، حتى أصبحت مصدر شقاء وينبوع استبداد ساد انكلترا قرناً من الزمان . ولنراجع في الفقرات التالية صفحات التاريخ فنرى كيف انتشرت البروتستنتية في انكلترا ، وبأية صورة كان نشوؤها وتطورها

كلنا يعرف أن الملك هنري الثامن أراد طلاق امرأته الاسبانية كاترين لعشقه غادة من غادات البلاط ، كانوا يسمونها (آن بولين) ولم يكن في الامكان في ذلك العصر تحقيق تلك الرغبة الجامحة ، فما وسع هنري إلا أن يحدث نزاعاً اشتد أمره مع رئيس الكنيسة الأعلى وحامي حماها في الشرق والغرب . طغت عليه الروح الاستبدادية روح العظمة والتفوق ، فحدثته نفسه بالانفصال عن كنيسة رومة ، ولم يلبث أن أعلن ذلك الانفصال ونصّب نفسه رئيساً أعلى للكنيسة الانكليزية

ولم تكن هذه الحركة في بدء أمرها إلا حركة سياسية محضة لم يشبها شائب من الدين والعقائد ، ولكن ما لبث أن فارق هنري دنياه ونصّب ولده الطفل أدورد ملكاً على عرش بريطانيا ، فكان له من الأنصار والساعدين نفر اشبعت نفوسهم بروح البروتستنية فأعلنوا أن الكنيسة الانكليزية قد غدت منفصلة

تمام الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ووضعوا كتابين من كتب الصلاة ليقرآ فى الكنائس بدلاً من الكتب القديمة

حركة جريئة أعقبتها فترة إحجام ورد فعل . مات إدورد فتبوأت مارى تيودور العرش ، وكان لتربيتها الكاثوليكية أثر عظيم فى نفسها مالبث أن دفعها للاعلان عن فساد جميع القوانين التى ظهرت فى عهد سلفها ، وعن رجوع الكنيسة الانكليزية إلى الحظيرة الكاثوليكية . ولتحقيق تلك الرغبة فى نفسها سنت قانوناً تحتم فيه على كل قس أوراهب أن يرجع إلى الحظيرة القديمة وإلا كان جزاؤه الموت والعذاب

أخيراً انتقلت تلك الملكة الغاشمة إلى جوار ربها وارتقت اليصابات العرش . ونظراً لروحها الاستقلالية ولميلها إلى الطموح والعظمة لم تلبث أن أعلنت بعد مرور ستة من تسنمها العرش . الانفصال التام عن الكنيسة البابوية وتنصيبها نفسها رئيسة عليا للكنيسة الانجليزية

لو أتيح لنا الاطلاع على كثير من الرسائل الشخصية التى كتبها الشاعر العظيم لأصدقائه وأخدانه لأمكننا الوقوف على عقائده وأفكاره الدينية ، هناك أمور عدة تحملنا على الاعتقاد بأن شكسبير كان رجلاً ديناً خيراً ، ولكن حرية فكره كانت سبباً دائماً فى انشغاله بأسئلة لا حد لها عن الموت والحياة غير متأثر بالعقائد الدينية السائدة فى عصره . كان والده بروتستنتياً متطرفاً ، فلا بدع أن نراه متأثراً أثر والده ، متحاملاً على البابوية والكثلكة أشد التحامل وأقساه . وبرغم هذا التحامل الظاهر فان الكنيسة البابوية ادعته فى كثير من الظروف والأحيان ابناً باراً من أبنائها وعلماً من أبرز أعلامها . واستندوا فى إدعاءاتهم هذه على كثير من البراهين والحجج التى إن لم تكن ضعيفة فى حد ذاتها ، فلا تصل إلى تلك الدرجة من الاقناع التى يتوخونها ويطلبونها

قد نستطيع من دراستنا لروايات هذا الشاعر أن نحدد العقائد التى كان يؤمن بها . فلقد صوّر فى هذه الروايات عدداً كبيراً من رجال الدين أمثال الراهب فرنسيس والراهب لورنس ، وكان فى كل صورة من أمثال هذه الصور يتوخى التبجيل والاحترام لرجال الأكليروس . إلا أن هذه النظرة وهذا الاحترام لم يتجاوزا طبقة الرهبان إلى طبقة البابوات ؛ فروايته التاريخية التى تتناول سيرة الملك يوحنا (King John) تعد فى حد ذاتها أكثر الروايات تحاملاً على البابوية والكثلكة . وعلى الرغم من ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الأيام وتفوقها على السلطة الزمنية نرى عدداً قليلاً من الملوك يضربون بسلطتها عرض الحائط ويحاولون نزع نير العبودية عن عواتقهم ، فكثيراً ما تعرضوا لوكلاء البابا وممثليه وأفحشوا لهم القول غير هيابين ولا وجلين . دعنا نعرض الأقوال الجريئة التى فاه بها الملك يوحنا مجيباً على تدخل البابا فى مسائل سياسية لا تعنيه شيئاً فهو يقول :

هل يمكن لأى رجل دنيوى مهما عات سلطته وارتفعت منزلته أن يعارض إرادة الملوك المقدسة ؟ فليس باستطاعتك أيها الكردينال أن تضطرنى إلى إطاعة رجل حقير لايسعنى إلا الاستهزاء به . اذهب إلى سيدك البابا وأخبره ما أسمعتك من قارص الكلام وزد على ذلك أن ليس لأى قسيس إيطالى أن يتدخل فى المسائل الانكليزية ، ومادمنا بمشيئة الله وإرادته قد وُجدنا رؤساء لهذه الأمة فلنا الحق وحدنا فى السير بها حسبما نشاء ونرغب دون أية مساعدة من إنسان . قل له إن ذلك الاحترام وإن تلك السلطة الغاشمة قد تقاص ظلمها منذ مدة » (١)

وفى خطاب آخر من نفس الرواية يعدد الملك يوحنا المساوئ الكثيرة التى كانت الكنيسة تتصف بها فى هذه العصور . فالبابا أصبح رجلاً مأجوراً يمكن للملوك أن يستخدموه إذا رشوه بالكثير من الأموال ، فليس من واجب الملوك أن يطيعوا رجلاً كهذا الرجل ، وهذه النظرية تتبين لنا فى مواضع عدة من روايات شكسبير فهو يتخذ من البابا أداة للسخرية والهزء فى رواية تيتس أندرونيكس (Titus Andronicus) إذ يقول :

« إنى لأعلم تمام العلم أنك رجل وفى ورع تحمل بين جنبيك نفساً طاهرة وضميراً حياً ، وأن لك حيلاً تماثل الحيل العديدة التى يتبعها البابا فى بسط نفوذه وجمع ثروته » (٢)

يتبع

مهيرى حماد

(1) King John . Act . III . Sc. I . 147 — 160
(2) Titus Andronicus V . I . 74 — 78